الفصل الثانى

عصور تونس التاريخية

تونس قبل الفتح العربى :

كان يسكن تونس فى القديم العنصر البربرى الذى لا يعرف عنه التاريخ إلا القليل ، ويحدثنا المؤرخون أنه كان للبربر نصيب من الحضارة لاتصالهم بعصر الفرعونية وبلاد اليونان .

وفى القرن الثانى عشر ق . م . ابتدأت تنتشر على سواحل تونس مراكز تجارية قام بتأسيسها الفنيقيون الذين قدموا إليها من الشام ، وهم الذين أنشأوا مدينة قرطاجنة فى القرن التاسع ق . م . التى ما لبثت أن أصبحت تسيطر على بقية المدن والمراكز التجارية الجديدة على طول سواحل بلاد المغرب ، وتكونت فى قرطاجنة فى ذلك العصر أعظم دولة بحرية امتد نفوذها من برقة إلى المغرب الأقصى ، وزاحمت الدولة اليونانية فى السيادة على البحر الأبيض المتوسط .

وبعد أن سيطرت قرطاجنة على السواحل بسطت سلطانها على المناطق الداخلية واستعمرتها وأجبرت البربر على دفع الضرائب والانخراط فى الجيش .

وقد انبعثت من مدينة قرطاجنة حضارة شرقية زاهرة ، وأخذ البربر بأسباب هذه الحضارة ، ونقلوا عن الفنيقيين أصول التجارة والصناعة والفلاحة ، واعتنقوا عقائدهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية .

وفى منتصف القرن الثالث ق . م . اشتد التنافس بين رومة وقرطاجنة فى السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط وأدى ذلك إلى نشوب « الحروب الفنيقية الثلاثة » بين الفريقين ، وقد دامت أكثر من قرن وانتهت بتدمير قرطاجنة الفنيقية سنة ١٤٣ ق . م . وإقامة قرطاجنة الرومانية على أنقاضها .

وقد تركت الحضارة الفنيقية التى دامت أكثر من عشرة قرون آثاراً عميقة فى البلاد .

وبعد العصر الفنيق دخلت تونس تحت سيطرة روما من سنة ١٤٦ ق . م . إلى سنة ٤٣٠ .ولم يعتن الرومان بادئ الأمر باستعمار البلاد إذ كانوا منهمكين فى الحروب الداخلية . وقد بسطوا نفوذهم المباشر على « أفريكا » (أفريقية) التى كانت تشمل مناطق المملكة التونسية الحالية ، بينما وكلوا أمر « نوميديا » (وهى منطقة قسنطينة الحالية التابعة للجزائر) إلى أمير من أمراء البربر وضعوه تحت حمايتهم .

وشرعت الدولة الرومانية فى تنظيم استعمارها وتوطيد أقدامها فى البلاد ، بعد أن استقر الحكم للقياصرة سنة ٣١ ق . م . فأقطعت الأراضى الشاسعة إلى قدماء المحاربين والأغنياء من الرومان وخطت الطرقات فى طول البلاد وعرضها . فانتشرت المزارع والبساتين وعم العمران وتعددت المدن الزاهرة حتى أصبحت تونس من أخصب ممتلكات الامبراطورية الرومانية وأكثرها عمراناً . وقد جعل الرومان من مناطق البلاد القاحلة مناطق خصبة بما أحدثوه من نظام محكم للرى وما حفروه من آبار .

وكانت سيطرة الرومان على البلاد عسكرية واقتصادية ، ومع ذلك فقد ازدهرت حضارتهم فى البلاد وبلغت أوجها بين بقية ممتلكاتهم ، وأخذ البربر بأسباب هذه الحضارة وساهموا فى ازدهارها ، ووصل بعضهم إلى أعلى الرتب والوظائف فى الدولة الرومانية . إلا أن بعض القبائل البربرية لم تقبل على هذه الحضارة وبقيت محافظة على شعائرها ولغتها ، وتحصنت فى الجبال وصارت تتربص الفرص للانقضاض على السلطة الرومانية .

ولما ظهرت الخلافات الدينية بين المسيحيين ساعد البربر على انتشارها فى إفريقية ، وكانت نتيجة ذلك أن اختلت الأحوال فى إفريقية وسادت البلاد الفوضى وضعف نفوذ الحكام وتكررت ثورات البربر ، وانتهى هذا العصر الذى دام ستة قرون باحتلال الوندال للبلاد فى القرن الخامس الميلادى .

وأسس الوندال بأفريقية مملكة مستقلة دامت نحو المائة سنة ، وكان احتلالهم

البلاد احتلالا عسكرياً ، وقد احتفظوا بنظام الإدارة الرومانية ، وقضوا على الاستعمار الرومانى للأراضى ، فاستمالوا بذلك البربر وتعاونوا معهم وأشركوهم فى الغزوات التى شنوها على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ولما ضعف سلطان الوندال خرج جزء كبير من بلاد البربر عن طاعتهم ، ولم يبق بأيديهم سوى شمال بلاد إفريقية (تونس) ، وانتهى بهم الأمر إلى أن طردهم روم بيزنطة سنة ٥٣٤ م . الذين ألحقوا إفريقية بامبراطوريتهم بعد أن كسروا شوكة البربر . ثم شرعوا فى تنظيم البلاد وإقامة الحصون بها لرد غارات القبائل البربرية .

وبعد أن عاد الأمن للبلاد وتمتعت بحياة الرخاء مدة قرنين متواليين اضطربت الأحوال بسبب ضعف سلطان الروم واستفحال النزعات الدينية ، وأفضى ذلك بولاة الروم إلى الاستقلال بالحكم فى المناطق الإفريقية التى كانوا يديرون شؤونها ، وقويت شوكة رؤساء قبائل البربر فخرجوا عن طاعة الدولة وصاروا يناهضونها فى كل المناسبات .

الفتح العربى :

بعد أن استولى العرب على مصر سنة ١٧ هـ فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب اتجهوا بفتوحاتهم نحو الشمال ، فانتزعوا برقة وطرابلس من يد الروم ، ثم حولوا أنظارهم إلى بلاد المغرب ، وغزوا إفريقية لأول مرة سنة ٢٧ هـ ، ثم رجعوا إليها سنة ٤٥ هـ ، ولكنهم لم يستقروا بها ولم يتركوا وراءهم أثرا يذكر .

فكانت هاتان الحملتان تمهيداً للفتح النهائى الذى تم على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ . وقد رأى عقبة أن أحوال إفريقية لا يمكن أن تستقر للعرب إلا إذا أنشأوا لهم مركزاً قاراً بها ومعسكراً يخرجون منه لفتح بقية المغرب ، فصرف عنايته لبناء مدينة القيروان . ومنذ اليوم الذى أصبح فيه للعرب عاصمة فى افريقية اهتموا بفتح بلاد المغرب فتحاً نهائياً ، وصاروا يعتبرون إفريقية ولاية مستقلة الشخصية بعد أن كانت تابعة لمصر .

وقد وقف كل من الروم والبربر في وجه استيلاء العرب على أفريقية وبقية المغرب وتحالفوا لمقاومة العرب . ولكن عقبة عرف كيف يقضى على هذه المقاومة في بادئ الأمر ، واستطاعت جيوشه أن تستولى على البلاد إلى أن وصلت حتى المحيط الأطلسي . غير ان جيوشه انهزمت في طريق رجوعها من المغرب الأقصى أمام جيوش البربر التي كان يقودها « كسيلة » . فخرجت أفريقية من يد العرب للمرة الأولى بعد أن احتل البربر القيروان . وأقاموا دولة بربرية في جنوب أفريقية ، بينما كان الروم محتفظين بشمالها ، ومتحصنين في قرطاجنة وبقية المراكز المحصنة . غير أن انهزام الجيوش العربية لم يمح أثر العرب في أفريقية إذ بقي الكثير منهم مقيما بالقيروان تحت حكم كسيلة ، وكانت تناصرهم قبائل بربر الجنوب الذين دخلوا الإسلام منذ الغزوة الأولى .

وفي عهد عبد الملك بن مروان توجه العرب إلى القضاء على دولة الروم ودولة البربر ، وكسر شوكة قبائل بربر الشمال المتحصنين في الجبال . فاستطاع زهير بن قيس البلوى القضاء على المقاومة البربرية سنة ٦٤ هـ . وجاء بعده حسان بن النعمان إلى أفريقية سنة ٧٦ هـ ، وكانت مهمته القضاء على مقاومة الروم ، فتمكن من الاستيلاء على حصونهم وطردهم من عاصمتهم قرطاجنة .

ولكن أفريقية خرجت من يد العرب مرة ثانية ، إذ انتظمت مقاومة البربر بزعامة إمرأة منهم تلقب « بالكاهنة » ، بينما جاءت النجدات إلى الروم من بيزنطة نفسها .

وعاد حسان إلى أفريقية سنة ٨١ هـ ، وبقضائه على جيوش الكاهنة قضى على آخر مقاومة قام بها أهل البلاد ، ثم اتجهت عنايته إلى الروم فاستولى على قرطاجنة بعد أن حاصرها برا وبحرا .

وهكذا تم الفتح العربي في أفريقية ، وبقي على العرب أن ينظموا شؤون ولايتهم الجديدة وأن يستقروا فيها ، وأن يفتحوا بقية المغرب حتى يتم لهم أمر البلاد كلها .

وكانت إدارة البلاد موكلة إلى الوالي الذي يعين من قبل الخليفة . واتخذ العرب مدينة القيروان مركزاً إدارياً ، وأنشأوا بها الدواوين المختلفة ، وعينوا العمال

للاشراف على شؤون الولاية .

وبادر حسان بإنشاء ميناء جديد يحل محل قرطاجنة ، فبنى مدينة تونس التى ما لبثت أن أصبحت المنفذ الذى خرج منه العرب لفتح صقلية وإيطاليا .

ويرجع استغراق الفتح العربى لبلاد أفريقية طول هذه المدة لأسباب : منها بعد البلاد عن مركز الخلافة ، ووعورة الأراضى ، واتساع مناطقها . ثم إن ظروف العرب فى ذلك الحين وما نزل بهم من أحداث وفتن كان من شأنها أن تقلل من الجهود التى كان على العرب أن يبذلوها لفتح المغرب .

وكانت المعاملة الحسنة التى كان العرب يعاملون بها البربر مما ساعد على فتح أجزاء المغرب الأخرى ، إذ بمجرد ما دخل البربر فى الإسلام اعتبروا متساوين فى الحقوق والواجبات مع الغزاة العرب ، وأصبحوا يشاركونهم فى الفتوحات ومناصب الإدارة وغيرها .

وقد أدت هذه السياسة فى بلاد أفريقية إلى نهوض البربر وأخذهم بأسباب الحضارة العربية وتعلمهم بلغة العرب ودينهم ، واندماجهم شيئاً فشيئاً فى العنصر العربى ، فأنشأوا عدة دول وأقاموا حضارة زاهرة متميزة فى تاريخ الحضارة الإسلامية .

تونس في القرن الثانى الهجرى :

كان للخلافات السياسية التى حدثت فى المشرق أواخر القرن الأول الهجرى والتى أدت إلى ظهور « الخوارج » صداها فى بلاد المغرب . فانتشرت حركة الخوارج بسرعة بين قبائل البربر وحتى فى بلاد الأندلس التى كانت فى ذلك الحين تابعة لإمارة القيروان . وصارت إفريقية بدورها ميداناً للفتن الداخلية . فلم تستقر فيها دولة قوية إذا استثنينا دولة بنى المهلب ، إلى أن ظهرت الدولة الأغلبية فى أواخر القرن الثانى هـ .

وكان لدعاية الخوارج أثر عظيم فى انتشار الإسلام واللغة العربية بين القبائل البربرية . وفى هذا العهد أيضاً وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عنايته إلى نشر الإسلام فى المغرب . فأرسل جماعة من مشاهير التابعين لتنظيم هذه المهمة ، وبناء صرح المغرب الإسلامى ، فأسسوا المساجد فى سائر أنحاء البلاد لنشر مبادئ الدين

الإسلامى ، وأنشأوا الكتاتيب لتعليم اللغة العربية [١] . ويرجع تاريخ بناء جامع الزيتونة إلى هذا العهد (سنة ١١٤ هـ) .

وبالرغم من الفتن والاضطرابات فقد بدأت تظهر فى إفريقية بوادر ازدهار الحضارة العربية ، وشرعت إفريقية فى ظل الإسلام تأخذ طريقها إلى الحياة السياسية والعقلية الخاصة بها ، إلى أن تكونت فيها دول قوية لها شخصيتها وحضارتها . وأولى هذه الدول هي الدولة الأغلبية .

دولة الأغالبة :

لم تستقر الأحوال فى إفريقية إلا فى عهد الخلافة العباسية عند ما عين هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ ابراهيم بن الأغلب والياً عليها ، جاعلا الإمارة وراثية فى بيته . وهكذا نشأت فى تونس أول دولة عربية قوية مستقلة داخلياً عن الخلافة ، وتعاقب أمراؤها على الحكم أكثر من قرن بلا انقطاع .

وقد اتخذ الأغالبة القيروان عاصمة لملكهم التى كانت تشمل المملكة التونسية الحالية ، كما تشمل مقاطعة قسنطينة (بالجزائر) وطرابلس الغرب .

وفى ظل الأمن الذى استطاعت الدولة تحقيقه ساد البلاد الرخاء ونمت ثروتها الطبيعية ، فانتشرت الزراعة كما كانت فى عهد الرومان ، وانتظمت وسائل الرى فى البوادى ، وأنشئت المدن ، وظهرت فيها الصناعات ، وبخاصة صناعة نسج الصوف والحرير . وعنيت الدولة بالمناجم فاستخرجت منها المعادن ، وقويت الحركة التجارية فى الموانى مع العواصم الأوربية .

وانصرفت الدولة إلى الأعمال العمرانية فجددت مسجد القيروان وأنشأت المساجد فى سوسة وصفاقس ، وأقامت الأسوار حول المدن والحصون على السواحل ، وبنت السدود والأحواض فى أنحاء البلاد لجمع مياه الأنهر والأمطار ، وأشهر هذه الأحواض « صهريج الأغالبة » فى القيروان الذى ما يزال موجودا حتى الآن .

وكانت مدينة القيروان فى هذا العصر معقلا من معاقل الحضارة الإسلامية ومنبعاً من منابع انتاج الفكر العربى ، فانتظم التعليم فى الكتاتيب والمساجد والجوامع ، وتكونت المكاتب العامة لجمع الكتب الأدبية والعلمية ، وأنشىء

(١) ابتدأ تأسيس الكتاتيب منذ أنشئت مدينة القيروان

بالقيروان معهد لدراسة الرياضيات والطب والصيدلة ولترجمة الكتب اللاتينية ، وسمى هذا المعهد « بيت الحكمة » . وقد ظهر فى ذلك العصر من مشاهير الرجال القاضى أسد بن الفرات (المتوفى سنة ٢١٣هـ) والقاضى سحنون المتوفى (سنة ٢٤٠هـ) من أئمة المذهب المالكى ، ومن الأطباء أحمد بن الجزار .

واعتنى الأغالبة بالفن المعمارى الذى امتاز فى عهدهم بطابع خاص . واشتهر بلاط الأغالبة فى القيروان بعظمته وأبهته وكانت لهذه الدولة صلات ودية بالامبراطور شرلمان . واعتنى الملوك الأغالبة إلى جانب هذا بالفتح فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط وكانوا ورثة قرطاجنة وروما . وقد احتلوا جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ واستولوا على جنوب إيطاليا سنة ٢٨٩ هـ ، وهكذا أوصلوا الثقافة العربية إلى أوروبا وصار الأساتذة العرب فى صقلية ينشرون العلوم ممهدين السبيل للنهضة الأوروبية التى ظهرت فيما بعد فى إيطاليا .

وبالجملة فإن عصر الأغالبة كان عصر نهضة اقتصادية وعمرانية وفكرية تركت أثراً عميقاً فى بلاد أفريقية .

الحركة الفاطمية :

كان للمذاهب المختلفة الناشئة عن الخلافات الدينية والسياسية القائمة فى الشرق العربى أثرها فى الدولة التى نشأت فى المغرب . وقد كانت هذه البلاد حتى أواسط القرن الثالث الهجرى يسودها المذهب المالكى الذى وطد أركانه بها كل من الفقيهين المالكيين أسد بن الفرات وسحنون .

ولكن شيئاً فشيئاً بدأ البربر يتصلون برجالات المذاهب الأخرى ، ووجدوا فى فرقة الخوارج وصلابتها فى الدين تلاؤما مع طبيعتهم ، وسرعان ما أقبلوا على اعتناق مذهبها ، وما كاد القرن الثالث يوفى على نهايته حتى كان مذهب الأباضية — وهى فرقة من فرق الخوارج — قد انتشر انتشاراً كبيراً فى القبائل التى تسكن جنوب المغرب .

أما قبائل الشمال كتامة وصنهاجة وما يتبعهما فقد اعتنقت المذهب الشيعى الذى

قام بالدعوة إليه فى المشرق عبيدالله المهدى ، وأوفد فى ذلك الحين الداعى أباعبد الله ليتولى نشر مذهبه ببلاد المغرب .

وكانت دولة الأغالبة قـد أشرفت على نهايتها . فنظم أبو عبد الله الدعوة ضدها ، كون الجماعات لنشر المذهب الشيعى وخلع طاعة الأغالبة ، والعمل على تكوين خلافة شيعية بالمغرب .

وعندما رأى عبيد الله المهدى أن الدعوة قد انتشرت بالمغرب ، وأن جيوش داعيته قد اصبحت قاب قوسين من النصر ، انتقل من دمشق إلى سجلماسة وظل مختفيا بها إلى أن انتهى الأمر بانهزام جيوش الأغالبة ، وفر آخر أمير منهم وهو زيادة الله الأغلبى بعد أن يئس من وصول نجدة العباسيين إليه . فدخل عبيد الله إلى القيروان حيث بويع بها سنة ٢٩٧ ولقب بأمير المؤمنين .

وهكذا تكونت بافريقية خلافة الفاطميين ، بينما كانت الخلافة العباسية ما تزال قائمة ببغداد ، والخلافة الأموية بالأندلس . وبعد ذلك أخذ الفاطميون يوطدون أركان دولتهم ببلاد المغرب ، فأسسوا عاصمتهم الجديدة سنة ٣٠٨ وأسموها المهدية ، واستطاعوا أن يخضعوا لسلطانهم كافة بلاد المغرب ، بعد أن قضوا على الدولة الأباضية فى تيهرت (الجزائر) والصفرية فى سجلماسة (المغرب الأقصى) والأدريسية فى فاس .

وبعد ذلك اتجه الفاطميون بدعوتهم إلى منبعها الأول فى الشرق العربى ، وأرادوا أن يبسطوا سلطانهم عليه ، فوجهوا جيوشهم بقيادة مولاهم جوهر الصـقلى الذى ما لبث أن استولى على مصر ودخل عاصمتها الفسطاط ، وأسس بجوارها مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ التى أصبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من الشام إلى أقصى المغرب .

وبالرغم من الثورات التى انتابت تونس فى هذا العهد فان الحضارة العربية قد ازدهرت بها من جديد ، ونشطت النهضة العلمية وانتشرت المعاهد الثقافية ليس فى تونس فقط بل حتى فى مدن صقلية التى كانت خاضعة لسلطانهم . وإلى جانب هذا احتفظ الفاطميون بالسيادة العربية على البحر الأبيض المتوسط ، فكان اسطولهم يجوب البحار ويشن الغارات على المدن الافرنجية وعلى جزر اليونان ،

واستطاعوا أن يضموا إلى خلافتهم كلا من جزيرتى أقريطش (كريت) وسردينيا وقسما من جزيرة كورسيكا .

الدولة الصنهاجية :

لما انتقلت عاصمة الخلافة إلى القاهرة أصبح المغرب ولاية تابعة لمصر يدير شؤونها أمير من أصل بربرى اسمه بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى . وهكذا تأسست الدولة الصنهاجية ، وكانت مرتبطة بالخلافة ارتباطاً صورياً فحسب . واستطاع ملوكها الاحتفاظ بمملكتهم الواسعة التى ورثوها عن الفاطميين .

ثم خرج عن طاعتهم المغرب الأوسط حيث تكونت به دولة بنى حماد فى فجر القرن الخامس هـ . ، وبقيت مملكة بنى زيرى محصورة فى إفريقية وعاصمتها القيروان .

وتعتبر الدولة الصنهاجية أول دولة بربرية فى إفريقية بعد الفتح الإسلامى ، ويعد عصرها من أزهر عصور الحضارة التونسية . وقد مهد لهم السبيل الأغالبة والفاطميون فى نهضتهم بالبلاد من الوجهة الاقتصادية والعمرانية والثقافية . فشارك الصنهاجيون بأوفر قسط فى بناء صرح الحضارة العربية ، وبلغت تونس فى عهدهم الذروة العليا فى الرقى والتمدن . فانتشرت الزراعة فى أنحاء البلاد بفضل انتشار وسائل الرى ، وارتفع مستوى الصناعة الوطنية ونشطت التجارة مع الخارج .

أما النهضة الأدبية والفكرية فإنها وصلت إلى درجة لم تبلغها تونس من قبل . فامتلأ بلاط ملوكها برجال العلم والأدب ، وعنى أغلبهم بالفن المعمارى فأنشأوا القصور الفخمة والمنازه الجميلة وتنافسوا فى تشييد المعالم كالجسور والطرقات وصهاريج المياه والحصون والأسوار .

غزوة بنى هلال :

وحوالى سنة ٤٣٥ هـ . أظهر الملك المعز بن باديس الصنهاجى انحيازه إلى أهل السنة فى القيروان ، وأصبح يناصر الخلافة العباسية فى بغداد معلناً خروجه عن طاعة

الخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٣٩ هـ .

فرأى المستنصر أن ينتقم من المعز ، وأرسل إلى إفريقية قبائل بنى هلال وبنى سليم ورياح التى كانت تقيم فى الصعيد المصرى ، فوصلوا إفريقية سنة ٤٤٠هـ.

وقد أحدث هذا الزحف العربى المظيم انقلاباً عميقاً فى مختلف نواحى الحياة بإفريقية ، إذ تم بفضله استعراب البلاد بصورة نهائية ، إلا أنه كان من نتائجه أن عمت البلاد الاضطرابات وتمزقت أوصال الدولة الصنهاجية ، ونشأت دويلات صغيرة فى أنحاء البلاد كانت أشبه بملوك الطوائف بالأندلس كما وقع فى سائر البلاد التى كان يحكمها العرب شرقاً وغرباً وقتذاك ، وبقى بنو زيرى محتفظين بالمهدية والمناطق المجاورة لها .

وفى تلك الفترة انتزع النورمان من العرب جزيرة صقلية بعد أن كانت تابعة لتونس مدة تقرب من ثلاثة قرون ، وصاروا يغزون المهدية بين الحين والآخر حتى استولوا عليها سنة ٥٤٣ هـ ، كما استولوا على معظم السواحل التونسية ، بينما كانت مدن الداخل تخضع لحكم القبائل العربية . وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجية فى تونس .

الدولة الموحدية :

استنجد الملك الحسن بن على الصنهاجى بعبد المؤمن بن على مؤسس الدولة الموحدية فى المغرب الأقصى لإنقاذ تونس من أيدى الأفرنج ، وكان عبد المؤمن فى ذلك الحين قد أخضع لسلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس ، فاستجاب عبد المؤمن لاستنجاد الصنهاجيين ، وسار إلى إفريقية محتلا فى طريقه المغرب الأوسط ، ثم أخذ يحتل بلاد إفريقية ، وبعد أن استولى على المناطق الداخلية سار إلى مدن الساحل وطرد منها النورمان . فتم له أمر البلاد سنة ٥٥٥ هـ وهكذا تأسست دولة مترامية الأطراف تضم أقطار المغرب العربى الثلاثة ، ودامت أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يخمدوا الثورات العديدة التى كانت تقوم ضدهم بين الحين والآخر .

الدولة الحفصية :

عمل ملوك بنى حفص على إصلاح البلاد من جراء العهد المضطرب الذى مر على افريقية ، وساروا على منوال الموحدين فى تنظيم دواوين الدولة . واستطاع أبو زكرياء مؤسس الدولة وكذلك المستنصر الذى خلفه توطيد دعائم الأمن فى تونس وإخماد نار الفتن بين القبائل والقضاء على الثورات التى نشبت فى مختلف أنحاء البلاد .

وقد اتسعت المملكة الحفصية حتى شملت طرابلس والجزائر ومراكش التى انضم ملوكها بنو مرين إلى الحفصيين وقدموا لهم فروض الولاء ، كما بايعهم أمير مكة وأهل الحجاز سنة ٦٥٨ هـ .

وفى عهد المستنصر أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس فى الحملة الصليبية الثامنة ، ونزل الطاعون بجيشه فأفنى معظمه ، وافى الملك لويس نفسه حتفه بتونس سنة ٦٦٩ هـ . (١٢٧٠ م) .

ثم شاهدت الخلافة الحفصية عهداً مضطربا دام حوالى مائة سنة ، وكان التنافس بين أمراء البيت الحفصى وتطلعهم إلى الخلافة من جهة ، والخلافات القائمة بين القبائل من جهة أخرى باعثا لكثير من الفتن التى اضعفت سلطة الخلافة المركزية ، فخرج عن طاعة الخليفة أطراف المملكة ، واستقل بالحكم بنو يملول فى توزر ، وبنو خلف فى نفطة ، وبنو مكى فى قابس ، وبنو ثابت فى طرابلس .

وقد شجع التدهور الذى لحق الخلافة الحفصية فى ذلك العهد ملوك بنى مرين فى المغرب الأقصى على الاستيلاء على افريقية مرتين دون أن يستقر لهم الحكم بها زمناً طويلا .

وفى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى عادت البلاد إلى وحدتها القديمة ومجدها السالف ، وساد فيها الأمن بفضل أعمال الخليفة أبى العباس والخليفة أبى فارس ، فتدعمت أركان الدولة من جديد وامتد نفوذ بنى حفص إلى المغرب الأوسط بعد أن سقطت تلمسان فى أيديهم ، ثم إلى المغرب الأقصى والأندلس . وقد عنى كل من هذين الخليفتين بإقامة الحصون على السواحل لرد الحملات التى ابتدأ يشنها الصليبيون على تونس ، بيد أن الخلفاء الذين تولوا بعدهما

لم يستطيعوا أن يحافظوا على مكانة الدولة ، فساروا بالبلاد إلى الفوضى ، وخرج عن سيادتهم كثير من الانحاء حتى لم يبق تابعا لهم فى أواخر القرن التاسع الهجرى غير مدينة تونس وما جاورها من المناطق ، واستقلت مدن السواحل بحكم نفسها ، وأخذت كل واحدة منها تلعب دورا هـامـًا فى البحر الأبيض المتوسط .

وفى عهد الدولة الحفصية رأت البلاد عصوراً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات وضعف سلطة الخلفاء المركزية ، وقـد عقدت الدولة الحفصية عـدة معاهدات لتنظيم الملاحة وتمتين العلاقات التجارية والسياسية بينها وبين البلاد الأوروبية كبرشلونة وجنـوة وبيزة وصقلية والبندقية ومرسيليا ، واشتهرت بين التجار الأوروبيين أسواق تونس والمهدية وقابس وعنابة وأصبحت قبـلة تجار البحر الأبيض المتوسط . وأينعت الحياة الأدبية والعلمية فى هذا العصر ، وكان نزوح العرب من الأندلس وصقلية إلى تونس من العوامل التى كان لها أكبر الأثر فى انتشار العلوم والفنون ، فظهر أثر الفن الأندلسى فيما أنشىء من المبانى كجامع القصباء بعاصمة تونس وصومعته المشهورة وأسواق المديـنـة وأبوابها التى ما تزال موجودة إلى الآن . كما عمل الملوك الحفصيون على تشجيع العلم والأدب فى البلاد ، فأسسوا المدارس لسكنى الطلبة ونظموا التعليم بجامع الزيتونة ، ومن مشاهير رجال هذا العصر ابن خلدون وابن عرفة والأطباء من آل الصقلى .

تونس فى القرن العاشر الهجرى :

شهد القرن العاشر ذلك النزاع الكبير الذى كان قائماً بين الاسبان والأتراك للتحكم فى البحر المتوسط والسيطرة عـليه ، وقد ابتدأ نفوذ الاسبان يمتـد إلى سواحل المغرب بعد أن طردوا العرب من الأندلس ، بينما ظهر فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط بعض القواد الأتراك مثل بابا عروج وأخيه خير الدين الذين كانوا يعملون باسم السلطان العثمانى .

وهكذا أصبح العثمانيون والاسبان يتسابقون للاستيلاء على سـواحل تونس بعد أن عجز أمراء بنى حفص على رد هجماتهم . واستطاع أمراء الأفرنج احتلال أهم مراكز السواحل التونسية ، وسقطت مدينة تونس سنة ٩٣٥ هـ . فى أيدى

الأتراك الذين احتلوها بعد استيلائهم على مدينة الجزائر . ثم انتزعها منهم الأمير الحفصى الحسن وعاد إلى حكمها تحت الحماية الاسبانية سنة ٩٤٢ هـ . وفى النهاية استطاع الأتراك طرد الاسبان من مدن السواحل بفضل الحملات التى شنها عليهم القائد التركى الشهير درغوث بمساعدة القبائل العربية .

وبقيت الحرب بين الاسبان والأتراك قائمة مدة طويلة ، وبعد أن استرجع الأتراك مدينة تونس سنة ٩٧٧ بقيادة على باشا أمير الجزائر عاد إليها الحكم الاسبانى الحفصى سنة ٩٨٠ ، ثم غزاها أسطول تركى جاء من الأستانة بقيادة سنان باشا ، بينما زحفت إليها قوات تركية أخرى من طرابلس والقيروان سنة ٩٨١ هـ .

وهكذا أصبحت تونس ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وجزءا من ممتلكاتها فى شمال افريقية الممتدة من الجزائر إلى القطر المصرى .

العهد التركي :

عمل سنان باشا قبل مغادرته تونس على تنظيم إدارة شؤون البلاد حسب النظام المعمول به فى سائر البلاد التركية .

فكان يحكم ولاية تونس نيابة عن السلطان العثمانى وال يحمل لقب « الباشا » ويساعده ديوان يتألف من ضباط الجيش ، وكانت قيادة الجيش بيد « آغا » ، وقيادة كل فرقة عسكرية بيد « الداى » ، وعين لجباية المال موظف يسمى « الباى »

وقد أخذ نفوذ الديوان يتسع شيئاً فشيئاً إلى أن أدى الأمر بالبلاد إلى قيام ثورة سنة ٩٩٩ هـ (١٥٩٨ م) كانت نتيجتها إعطاء مقاليد الأمور إلى أحد « الدايات » ، ثم أخذ نفوذ الداى يتسع شيئاً فشيئاً ، بينما كان يتضاءل نفوذ « الباشا » الممثل الرسمى للدولة العثمانية فى تونس .

وقد نظمت شؤون هذه الولاية فى عهد عثمان داى الذى عمل على تقوية الجيش وإعطاء قيادته إلى « باى » . وسار على منواله يوسف داى الذى تولى الحكم سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) ، فاستتب الأمن فى عهدهما ونهضت البلاد من جديد ثم ساءت الأحوال فى تونس بعد ذلك ، لأن الدايات الذين تعاقبوا على

الحكم من سنة ١٠٤٧هـ (١٦٣٧م) إلى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ، وقد تضاءلت سلطتهم أمام سلطة «البايات» التي أخذت تتسع يوماً بعد يوم طول القرن الحادي عشر الهجري.

ومن العوامل التي قوت نفوذ البايات ما عمد إليه الباب العالي من إعطائهم لقب «باشا»، وجعل منصب الباي وراثياً.

وقد امتاز الثلث الأخير من القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر بما انتاب البلاد من حروب واضطرابات ناتجة عن التنافس على العرش. فنشبت الفتن الداخلية، وقامت حروب بين إمارة الجزائر وإمارة تونس، فعمت بذلك الفوضى، وتمزقت أوصال الدولة، وضعفت السلطة المركزية، مما شجع أساطيل الدول الأوروبية على ضرب سواحل تونس بالقنابل مرات عديدة.

وعلى أثر غزوة قام بها والي الجزائر سادت البلاد اضطرابات شديدة، وتمكن آغا الجيش حسين بن علي من الاستيلاء على الحكم بمساعدة الجيش التركي وموافقة الأهالي سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م). وهكذا تأسست الدولة الحسينية التي توارثت الحكم في تونس إلى يومنا هذا. فساد الأمن للبلاد بعد حالة من الاضطرابات دامت أكثر من أربعين سنة. وقضت الدولة الحسينية منذ أوائل عهدها على الثورات التي كان يقوم بها الجيش من حين لآخر لقلب نظام الحكم، وجعلت الولاية وراثية في العائلة الحسينية.

واستطاع حسين بن علي مؤسس الدولة الذي دام عهده خمساً وثلاثين سنة إصلاح شؤون البلاد، فانتشر العمران في تونس، ونشطت الفلاحة والصناعة والتجارة، وتأسست المنشآت العلمية.

ومن بين ملوك البيت الحسيني الذين اشتهروا بأعمالهم ومآثرهم يجب أن نذكر علي باي (١١٤٨هـ — ١١٦٩هـ) (١٧٥٦م — ١٧٣٥م) الذي استطاع أن يحقق لتونس عشرين سنة من الرخاء والطمأنينة. أما حمودة (١١٩٦ هـ — ١٢٢٩ هـ). (١٧٨٢ م — ١٨١٤ م) فقد اشتهر في التاريخ بتمتين علاقاته مع أوروبا، وخاصة مع نابليون سنة ١٨٠٢ م، وبحربه مع البندقية التي دامت ثماني

سنوات (١٧٨٤م — ١٧٩٢ م) .

* * *

وقد امتاز الحكم التركى فى تونس — شأنه فى ذلك كشأنه فى كل الممالك التى كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية — بأنه كان يقوم على القوة وعلى الجيش . وكان هم الدولة العثمانية الاستيلاء على أزمة الحكم فى ممتلكاتها مستندة فى ذلك على الجيش . ولم يكن لها اتجاه معين فى سياستها ، ولا مبادئ تسير عليها فى تنفيذ هذه السياسة ، وبقدر ما يستطيع الجيش أن يحافظ على الأمن تزدهر الحياة الاقتصادية وتنمو التجارة والصناعة والفلاحة والعلوم والفنون .

وكان يتحكم فى البلاد قوتان عظيمتان هما : الجيش من جهة ، ويعتمد عليه الوالى فى حفظ الأمن وجباية الأموال ، وطائفة « الرياس » من جهة أخرى ، وهم الذين يتولون عمليات القرصنة ، وهى نوع من العمليات الحربية التى كان يقوم بها الجانبان المتحاربان من الدول الأوروبية والشرقية .

وقد رأت تونس تحت الحكم التركى عهوداً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات بفضل ما بذله بعض الأمراء الصالحين من مجهودات جبارة للنهوض، بالبلاد فى سائر نواحى حياتها . وفى أوائل هذا العهد كان نزوح عدد كبير من العرب الذين طردوا من الأندلس سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٩ م) من العوامل التى نشطت التجارة والفلاحة والصناعة .

وقد استوطن عرب الأندلس فى سهول بنزرت ومجردة والدخلة ، وشيدوا فيها القرى الفلاحية كطبربة ومجاز البـاب وتستور والعالية وقلعة الأندلس وقرنبالية وزغوان وسليمان والجديدة ، وأنشأوا المزارع والبساتين ، حتى عادت إلى البلاد رفاهيتها القديمة .

وكانت الغنائم التى يغنمها القرصان فى البحر الأبيض المتوسط من عوامل أثراء السكان ، وقد قوت القرصنة حركة البلاد التجارية وجعلت أسـواق المدن مزدهرة . على أن أعمال القرصنة لم تكن حائلا دون ربط الصلات بين تونس وأوروبا ، واستئناف علاقاتها التجارية مع الدول كاسبانيا والدانمارك والولايات المتحدة ، فبمجرد ما انتظمت أحوال الدولة ، نشطت تجارتها مع مرسيليا وليفورن وبقية المدن الأوروبية ، وقد تكونت علاقات رسمية بين تونس وفرنسا سنة ١٥٧٧م

وأرسل ملك فرنسا هنرى الثالث قنصلا إلى تونس بعد الحصول على موافقة الدولة العثمانية التى أعطت لفرنسا امتيازات كبيرة فى سائر ممتلكاتها .

وقد ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكلها الحاضر وبخاصة منذ تولى حسن بن على الحكم وجعله وراثيا فى بيته . وكانت الروابط التى تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على ممر الأيام ، وضعف سلطان تركيا فى تونس حتى كاد يكون عديم الوجود . وهكذا ابتدأت تنمو فى تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث وظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوروبية بكيانها وعقدت معها المعاهدات .

والحقيقة أن العنصر التركى الذى نزل بارض تونس وأقام الحكم فيها قروناً عديدة لم يدخل تغييراً جوهرياً فى أحوال البلاد ، ولم يعتبر أهل تونس الغزاة الأتراك أجانب عنهم إذ كانوا يحكمون البلاد نيابة عن السلطان خليفة المسلمين جميعاً . على أن العنصر التركى لم يحتفظ بشخصيته بل أندمج بمرور الزمن فى العنصر العربى .

واستمرت النهضة التونسية التى ابتدأت فى عهد الدولة الحفصية وأخذت طابعها الخاص بلا انقطاع تحت الحكم العثمانى ، وأخذت تونس تسير بخطى سريعة نحو التطور العصرى لما طلع عليها فجر القرن التاسع عشر الميلادى .

تونس فى القرن التاسع عشر :

فى أوائل القرن التاسع عشر بدأت تونس تستيقظ متدرجة فى طريق النهضة العصرية ، وكان ربطها بالدولة العثمانية مجرد روابط روحية ، فبادرت بالتحرر من هذه القيود الصورية ، واعترفت الدول الأوروبية كفرنسا وانكلترا والنمسا باستقلالها وعقدت معها المعاهدات والاتفاقات . ثم اتجهت همة أمرائها إلى إدخال الإصلاحات على مرافق البلاد الحيوية ، وفى مقدمتها إصلاح نظام الحكم بما يتفق والنظام الدستورى السائد فى الأمم المتمدنة .

فقبيل فرض الحماية الفرنسية بنحو أربعين سنة نجد على عرش تونس الباى المصلح الشهير أحمد باشا (١٨٣٧م — ١٨٥٥ م) الذى كان حريصاً على إدخال

إصلاحات واسعة النطاق فى جميع النواحى ، وهيأت له الزيارة التى قام بها إلى أوروبا سنة ١٨٤٦ م فرصة الاطلاع على تقدم المدنية الحديثة والاقتناع بإدخال انقلاب جديد فى حياة الشعب ، وبمجرد عودته إلى تونس وضع مشروعات هذا الانقلاب الذى كان يرجو من ورائه تدعيم أركان دولته وتنظيمها على أساس جديد يضمن لها التقدم والرقى ويحفظها من اعتداء الدول عليها . وكان ابرز ما قام به من مشروعات تنظيمه للجيش على الأساليب الحديثة ، وأنشاؤه لمدرسة حربية جلب إليها الأساتذة من أوروبا ، واحداث مصانع للاسلحة والذخيرة ودار لصناعة السفن ، وتكوين أسطول بحرى .

وقد سار على منواله محمد باشا الذى ارتقى عرش تونس عام ١٨٥٥م . وقد اشتهر هذا الملك بأصداره دستوراً حديثاً للدولة التونسية سمى «عهد الأمان» (١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٨) وهو أول دستور فى العالم الإسلامى .

وفى عهد الصادق باى وبفضل جهود المصلح الكبير الوزير خير الدين باشا تم تعديل هذا الدستور عام ١٨٦١ وفقا لمبدأ فصل السلطات ، وأقامة النظام البرلمانى ، وتأسيس مجلس تشريعى له سلطة واسعة منها حق خلع الأمير إذا خالف بتصرفاته أحكام الدستور . ونظمت الإدارة المركزية والإدارات المحلية تنظيما عصريا ، كما نظمت البلديات والمحاكم الشرعية وشؤون الأوقاف ، وسن قانون جديد يضمن للفلاحين حقوقهم(١) ، كما وضع برنامج خاص لتوزيع الأراضى الزراعية الأميرية على سكان البادية . وأنشىء مجلس للعناية بالشؤون الصحية وإدارة لغابات الزيتون وإدارة الأوقاف ، ونظمت مناهج التعليم بجامع الزيتونة ، وأسست المدرسة الصادقية لدراسة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية ، كما أرسلت البعثات العلمية إلى إيطاليا وفرنسا .

وهكذا كانت تونس تسير بخطى واسعة فى سبيل الرقى والتقدم إلى أن منيت بالاحتلال الفرنسى . فأقامت فرنسا العراقيل فى سبيل هذه النهضة وعطلت سيرها ، وأعادت البعثات العلمية من أوروبا ، وحولت مناهج التعليم بالمدرسة الصادقية إلى أن جعلتها مناهج لإخراج الموظفين والمترجمين فحسب .

---

(١) وهو قانون « الخماسة » المعمول به فى تونس حتى اليوم .